الدولة الغزنوية ودورها فى نشر الإسلام
فى شبه القارة الهندية

للدكتور / أحمد الخولى

أستاذ مشارك
بقسم التاريخ بكلية الشريعة واللغة العربية بالقصيم

الدولة الغزنوية
ودورها في نشر الاسلام في شبه القارة الهندية

تمهيـــد :

لم يكن انتشار الاسلام في المنطقة الواقعة خلف نهرى سيحون وجيحون(السند[1]) إلا نتيجة لغزوات بدأت في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وتأكدت في زمان خلفه الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنهما، وانتهت في عهد مؤسس الخلافة الأموية معاوية بن أبي سفيان إلى إخضاع المنطقة الواقعة بين (الملتان وكابل) ثم وصلت إلى ذروتها في عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك[2] على يد قائده الشهير محمد بن القاسم الثقفي بطل السند[3] ، والذى لم يكتب لقائد من بعده أن يصل إلى المدى الذى وصل اليه توغلا في شبه القارة الهندية حتى أيام الغزنويين.

---

(١) السند : هي المنطقة الواقعة شرقي ايران على ساحل بحر الهند، وهي دلتا نهر السند (الأندوس) التي تمثل مدخل القارة الهندية .

(٢) لايسهب المؤرخون في الحديث عن الفتوح الإسلامية في منطقة السند قبل خلافة الوليد بن عبدالملك لأن بعضهم لا يكترث بأخبار الفتوح، فيما عدا البلاذرى الذى وقع عليه العبء، فيذكر في كتابه فتوح البلدان حملة قام بها المغيرة بن أبي العاص الى خور الديبل «هي المنطقة التي تقع فيها كراتشي» في خلافة عمر بن الخطاب. ثم يذكر في كتابه ايضا أن الخليفة عثمان بن عفان طلب من واليه على العراق عبدالله بن عامر أن يستطلع الأحوال في ثغر الهند، وفي أواخر عام ٣٨ هـ وأول عام ٣٩ هـ، وفي خلافة علي بن أبي طالب قام الحارث بن مرة العبدى بغزو ثغر الهند.. ولكنه قتل عام ٤٢ هـ. وفي أيام معاوية عام ٤٤ هـ قام المهلب بن أبي صفرة بعمليات عسكرية ، وولى معاوية بعد ذلك عبدالله بن سوّر العبدى الذى تابع ماقام به المهلب، ثم كان الاستيلاء على مكران زمن ولاية عبيد الله بن زياد على العراق، واستمر الحال على ذلك ـ فيما يسميه العرب ـ بتوالي الحملات علي «ثغر الهند» حتى مطلع خلافة الوليد ... أنظر فتوح البلدان للبلاذرى جزء ٥ ص ٦٠٧ وما بعدها .

(٣) أنظر قصة بهذا الاسم.. تأليف محمد عبدالغني حسن، ضمن سلسلة اقرأ الصادرة عن دار المعارف بمصر .

وقد بدأ الفتح الإسلامي لهذه البلاد يأخذ أكمل صورة وأوسع مدى حين ظهر الغزنويون الأتراك في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادى، وطفقوا يطرقون أبواب شبه القارة الهندية، ويتوغلون فيها بعد أن أقاموا لهم بخارجها دولة واسعة ضمت فيما ضمت غزنة، سيستان ، لمغان ، خراسان ... وأغلب بلاد ماوراء النهر(٤).

وفيما بين ابتداء العرب المسلمين لهذه المسيرة ، مسيرة غزو شبه القارة الهندية، واكمال الترك المسلمين لها رباط واحد وقاسم مشترك ألا وهو ديننا الإسلامي الحنيف(٥).

وقد شاهد العالم الإسلامي في الفترة مابين الفتحين العربي والتركي للهند أحداثا خطيرة ومتنوعة، فقد زالت الخلافة الأموية تاركة الحكم للعباسيين الذين نقلوا العاصمة من دمشق بالشام إلى بغداد بالعراق، وأخذوا يعتمدون على العنصر الفارسي في المناصب المدنية وعلى الترك في المناصب العسكرية.

ومن هنا بدأ لهذين العنصرين أنه من الممكن الاستقلال بالحكم وانقلب التنافس بينهما على المناصب الى تنافس في تأسيس دول قائمة بذاتها، لها كيانها السياسي وسيادتها الإقليمية في الشرق من العالم الإسلامي ، وان ظلت هذه الدول تخضع معنويا للخليفة العباسي في بغداد وقد جعل ذلك المشرق الاسلامي يعيش منذ عام ٢٠٥ هـ ـ ٨٢٠ م حتى الغزو المغولي الذى أطاح بالخلافة العباسية في عام ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م بين التبعية والاستقلال(٦).

ولأن الغلبة في السيطرة على المناصب في العصر العباسي كانت للفرس أولا ثم انتقلت الى الترك، فقد كانت أولى الدول التي تأسست في المشرق الاسلامي هي

---

1 - Panikar, K.M A survey of Indian History, Asia Publishing House. Bombay, 1963, P. 117 .

(٥) يقول الله عز وجل فى محكم آتياته «يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا أن اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير» صورة الحجرات آية : ١٣.

(٦) على ابراهيم حسن التاريخ الاسلامي العام ، ص ٤٦٢ ومابعدها.

الطاهرة[٧] والصفادية [٨]، ومن بعدها السامانية[٩]، وكل مؤسسيها في الأصل فرس خلص، ثم تمكن الترك من التغلب على الفرس واقامة أول كيان سياسي لهم متمثلا في الدولة الغزنوية فالسلجوقية[١٠] فالخوارزمية[١١] التي تقلصت بالغزو المغولي للعالم الإسلامي، ومن هنا يمكن القول ان الميزان كان متكافئا بين الفرس والترك في تأسيس الدول في المشرق الاسلامي.

---

(٧) الدولة الطاهرية.. أسسها طاهر بن الحسين عام ٢٠٥ هـ/ ٨٢٠ م وهو الذى ساعد المأمون في تولي الخلافة العباسية ، وقد أنقرضت الدولة الطاهرية على يد يعقوب بن ليث الصفار في عام ٢٥٩ هـ/٨٧٣ م، وعلى الرغم من أن الطاهريين ايرانيون الا أن اللغة العربية ظلت لغة الدولة الرسمية، كما أن الأدب العربي ظل محط اهتمام الأمراء الطاهريين الأول .. وهناك رواية تؤيد ذلك، وهي أن عبدالله بن طاهر كان يجلس في يوم ما في عاصمة دولته فيسابور ، فأحضر اليه بعض الناس كتابا وقدموه اليه، وكان هذا الكتاب قصة قديمة منظومة بالنهلوية تدعى «وامق وعذرا» الا أن عبدالله بن طاهر رفضها وقال: «نحن قوم نقرأ القرآن ولانريد غير قراءة أحاديث الرسول، ولاحاجة بنا الى مثل هذا الكتاب، لأنه من تواليف المجوس، وهو مردود لدينا.. «ثم أمر بهذا الكتاب فألقوه في البحر وأمر بحرق الكتب المجوسية «للحصول على معلومات أوفر عن هذه الدولة أنظر فتحي أبوسيف: المشرق الإسلامي بين التبعية والاستقلال، أولا الطاهريون تاريخهم السياسي والحضارى. القاهرة ١٩٧٨ م.

(٨) قامت هذه الدولة بقيادة يعقوب بن الليث الصفارى على أنقاض الطاهريين عندما سقطت فيسابور عاصمتهم في خراسان في عام ٢٥٩ هـ/٨٧٣ م، وقد أنحصرت قوة هذه الدولة في شخصية مؤسسها يعقوب وانتهت تقريبا بوفاته .. للحصول على معلومات أوفر عن هذه الدولة الصفارية (يعقوب بن ليث الصفار) ترجمة فتحي الريس (دكتور) القاهرة ١٩٧٧.

(٩) الدولة السلجوقية تأسست عام ٤٣٢ هـ/١٠٤٠ م، واعترف الخليفة العباسي (القائم بأمر الله) بطغرل أول ملوكها في رمضان عام ٤٤٧ هـ/ديسمبر ١٠٥٥ م للحصول على معلومات أوفر عن هذه الدولة انظر سلاجقة إيران : عبدالنعيم حسنين (دكتور) القاهرة ١٩٧٣ م، ويقول (ستانلي لين بول) فى كتابه Mohaummedan Dynasties «إن ظهور السلاجقة الأتراك يعتبر فاتحة لفترة هامة من فترات التاريخ الاسلامي، فقد تمكنوا ـ بغض النظر عن أمور أخرى، من أن يجددوا العزم والحياة في أرواح المسلمين بعد مافترت عزائمهم وخمدت حماستهم بأن دفعوا البيزنطيين الى ماوراء حدودهم، وأنشأوا جيلا من المسلمين المحاربين المخلصين، يرجع اليهم الفضل فيا أصاب «الصليبيين» من هزائم كثيرة متكررة، وهذا يجعل للسلاجقة مكانا ممتازا في التاريخ الاسلامي .

(١٠) الدولة الخوارزمية تأسست بزعامة اتسز في عام ٥٢١ هـ/١١٢٧ م في خوارزم ... للحصول على معلومات أوفر في هذه الدولة انظر حافظ حمدى: الدولة الخوارزمية والمغول .. القاهرة ١٩٤٩ م.

(١١) هم الايلكانيون قوم بغراخان قشغر الذى دخل وقومه الإسلام في القرن الرابع الهجرى وتسمى باسم هارون بن سليمان (حمزة طاهر : مجلة الثقافة عدد ١٩٤٧/٩٦٩ ـ مقال عن السلاجقة).

مؤسس الدولة الغزنوية :

لما عظم شأن الترك في شرق العالم الاسلامي، ورثوا ومعهم القره خانيون دولة بني سامان الفارسية، ودفع الطموح الغزنويين الى التطلع للفتح والغزو، فولوا وجوههم شطر شبه القارة الهندية فمن هم الغزنويون؟

مؤسس الدولة الغزنوية هو سبكتكين(١٢) الذى كان غلاما لألبتكين صاحب غزنة، جلب من التركستان إلى بخارى ثم انتقل الى نيسابور حيث خلف سيده عليها عام ٣٦٧ هـ/ ٩٦٦ م.

كان سبكتكين يتصف بروح الطموح وقوة العزيمة، فعرف كيف يوحد صفوف الأتراك والأفغان فى إمارته، ويسيرّهم لفتح لمغان وسيستان وخراسان ثم ينقلب بهم بعد ذلك مندفعا عبر مسالك الهندكوش الوعرة المسالك هادفا غزو بلاد الهنادكة.

وقد كان سبكتكين مستقلا عن السامانيين من الناحية العملية، على الرغم من أن مولاه البتكين كان حاجبا لهم، وهم الذين نصبوه على غزنة.

وحينما التقت جنده بجيش «جيبال راجابهاننده» الذى كان يحكم مملكة واسعة تمتد من الكنج إلى بلاد الأفغان، ومن كشمير إلى الملتان روّع الهنادكة، فأرسل حاكمهم يعرض

(١٢) يذكر بعض المؤرخين أن سبكتكين هو من أحفاد يزدجر الثالث آخر ملوك فارس قبل الاسلام وأن أسرته كانت بالتركستان في عهد عثمان بن عفان لاجئة فاختلطت بأهلها ثم تتركت .. وهذا قول مرفوض ذلك أن أغلب الموالي الذين بلغوا رتبة الإمارة قد ادعوا لأنفسهم مثل هذا الادعاء طلبا لعراقة النسب (أحمد محمود الساداتى (دكتور) تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم ص ١٤ هامش ٢ . القاهرة ١٣٩٠/١٩٧٠ وقد ورد فى تاريخ البيهقي ـ نقله الى العربية يحيى الخشاب (دكتور) وصادق نشأت ص ٢١٦ ـ ٢١٨ ، بيان شامل عن شجرة .

الصلح مقابل جزية كبيرة مع الاعتراف بسيادة الأمير الغزنوى، غير أن محمودا صرف أباه سبكتكين عن قبول عرض الحاكم الهندوكي حتى لا يبيع الجهاد في سبيل الحق .

ولكن جيبال لم يقنط أو ييأس لدى بلوغه النبأ، فأرسل الى سبكتكين يخبره أن الهنادكة لايهابون الموت اذا مانزلت بهم نازلة، وأنهم سيفقأون أعين أفيالهم ويلقون بأطفالهم في النار ويخربون بيوتهم بأيديهم ثم يزهقون أرواحهم بسيوفهم ورماحهم، فلا يجد المسلمون حين يدخلون ديارهم الا خرائب وجيفة.

وبينما قبل صاحب غزنة الهدنة على جزية مقدارها ألف ألف درهم وخمسون فيلا مخصصين للحرب وقدر من الحصون والبلد ان حنث الأمير الهندوكي بعهده، وزج بفريق من رجال غزنة فى السجن كانوا يصحبونه لمراقبة تنفيذ الاتفاق وأبقاهم عنده عوضا عن رهائنه لدى سبكتكين، ولكن أخبار الخيانة والغدر أثارت ثائرة الحاكم الغزنوى فانطلق من فوره الى أرض عدوه(١٣).

وعلى الرغم من التفاف أصحاب أجمير ودهلي وكالنجر وقنوج حول «جيبال»، وما تهيأ لهم جميعا من جند كثيف نيف على مائة ألف من المقاتلين، فقد أنزل سبكتكين بعصبة الأمراء الراجبتيون هزيمة ساحقة، اضطروا من بعدها الى طلب الصلح على أموال كثيرة طائلة عدا مائتين من الفيلة وعشرة آلاف من رؤوس الخيل سيقت كلها إلى بشاور(١٤).

وقد أدار صاحب غزنة دفة القتال بمهارة فائقة، إذ عبأ جنده القليل في وحدات قوام كل منها خمسمائة من المقاتلين طفقوا يتبادلون مراكزهم في الجبهة حتى ارهقوا عدوهم فأجهزوا عليه(١٥).

(١٣) أحمد محمود الساداتى: المرجع السابق ص ٦٥ .

(١٤) تاريخ العتبي على هامش الفتح الوهبي ص ٨١ ، ٨٦ .

(١٥) أحمد محمود الساداتى :) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

ولم يكن هذا الانتصار لصاحب غزنة ذا نتيجة واحدة فقد تعددت النتائج، وأعلنت قبائل الافغان الخلع عصيانها، ولزمت طاعت الحاكم الغزنوى والولاء له.

وإن كانت حروب سبكتكين الهندية هذه مجرد غزوات إلا أنها مهدت سبيل الفتح أمام جيوش المسلمين فيما بعد ـ

محمود الغزنوي :

مات سبكتكين في شعبان في عام ٣٨٧ هـ/ ٩٩٧ م بعد أن أستمر في حكم البلاد عشرين عاما. وترك من ورائه مملكة واسعة قوية.

وكان هذا الامير الغزنوي قد عهد قبل وفاته بالحكم الى ابنه الضعيف اسماعيل، على الرغم مما عرف من اعتداده بابنه الاكبر عين الدولة محمود، اعتدادا شديدا، وكان يروى للناس أنه رأى في المنام قبل مولد هذا الأبن شجرة نبتت فجأة في حديقة داره، فأخذت أغصانها تمتد في كل ركن حتى أظلت العالم أجمع[١٦].

كان طبيعيا ان يسترد محمود الحكم من أخيه وينفرد به بعد وفاة أبيه بأشهر قليلة .

ومالبث محمود أن ورث ملك السامانيين كله في خراسان وبلاد ماوراء النهر، كما قضى على سلطان البويهيين[١٧] في الرى، وهزم السلاجقة والقرة خانيين، وتوغل في بلاد فارس وسيطر على أقليم قزوين، كما فتح الغور في الهندكوش بين غزنة وهراة، ونشر الإسلام بين أهلها على نطاق واسع لأول مرة .

ولقد راح محمود يعلن، منذ أول عهده بالحكم، أنه قد أخذ على عاتقه الجهاد بسيفه فى سبيل نشر تعاليم الاسلام الصحيحة والقضاء على الفرق المضللة من رافضة وقرامطة وغيرهم، وكان يكتب إلى الخليفة العباسي في إثر كل نصر يحرزه فيصل منه التشجيع والتعضيد والدعاء.

(١٦) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(١٧) البويهيون حكموا في الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية من البلاد الفارسية وأصبح لهم الحق المطلق في بغداد والسيطرة الفعلية على الخليفة بحيث أضحى فى الواقع آلة في أيديهم يحركونها كيف يشاءون، وكان وزيرهم الصاحب بن عباد من أشهر رجالات الأدب في عصره، يقول عنه بن خلكان واجتمع عنده من الشعراء مالم يجتمع عند غيره ومدحوه بغرر المدائح ولمعرفة المزيد عنه ارجع الى الثعالبي في يتيمة الدهر طبع بيروت جـ٣ ص ٣١، ٣٢.

وهكذا امتد سلطان محمود إلى آفاق بعيدة، وذاع صيته في أنحاء البلاد الإسلامية.. ثم ولي هذا القائد المسلم وجهه شطر شبه القارة الهندية حيث رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر(١٨) فغزاها سبع عشرة مرة على مدى سبعة وعشرين عاما بين عامي ٣٩١ هـ/١٠٠٠ م و٤١٧ هـ/ ١٠٢٦ م . إلى أن دانت له هذه البلاد من بنارس إلى غزنة ومن الهملايا إلى الدكن.

---

(١٨) أحمد محمود الساداتي: المرجع السابق، ص ٦٧.

غزوات محمود في الهند :

تمثلت أولى غـزوات محمود في الهند في احتلال بعض الحصون عند الحدود فولاها بعض رجاله، ولكنه عاد الى الهند في شوال عام ١٠٠٠/٣٩١ م على رأس عشرة آلاف مقاتل لاقى بهم جيش عدو ابيه جبيال راجا بهاتنده عند بشاور، وكان الأخير فى إثنى عشر ألف من الفرسان وثلاثين ألفا من المشاه مدعمة بثلاثمائة من الفيلة ودام القتال بين الفريقين مايقرب من ستة أشهر كان محمود قد أباد خلالها خمسة عشر الفا من الهنادكة ووقع قائدهم ونفر من أتباعه في أسر السلطان الغزنوي(١٩).

وبينما كان محمود قادرا على قتل من بأسره الا أنه وافق على إطلاق سراحهم مقابل أموال طائلة وعدد من فيلة الحرب ونفر من الرهائن من بينها ابن «الجيبال» حاكم لاهور وأحد حفدته، ذلك أنه رأى أن مغانم الحرب أنفع وأبقى له خاصة وأن الهنادكة لم يعودوا مكمن خطر بالنسبة له بدليل أن قائد الهنادكة لم يقو على تحمل عار الهزيمة فعرض نفسه على النار وفق رسوم قومه تكفيرا له عما ناله من هزائم متلاحقة أمام الغزنويين .

وارتحل محمود الغزنوى في غزوته الثالثـة عام ٣٩٥ هـ/ (١٠٠٤ ـ ١٠٠٥ م) إلى بهيرة على مقربة من روافد السند وضمها إلى ملكه ثم انتقل إلى الملتان مقر أبي الفتح القرمطى الذى عرض الصلح على محمود بجزية سنوية مقدارها عشرون ألف درهم من الذهب.

كان بوسع محمود أن يواصل مسيرته غازيا في سبيل الله واعلاء كلمة الإسلام، الا أن أخبارا وصلته بأن أمير قشغر يهاجم أملاكه فآثر العودة الى قاعدته تاركا فتوحاته في الهند في عهدة واحد من حفدة «جيبال» كان قد انضم اليه وأسلم على يديه وهو ماتتعارف المصادر العربية على تسميته (نواسه شاه حفيد السنسكريتي) ... وفي غزنة بلغ محمود أن نائبه بالهند قد أعلن التمرد، فعاد اليه ولم يتركه حتى افتدى نفسه بأربعمائة ألف درهم .

(١٩) أحمد محمود الساداتى ص ٦٨ .

وتكاتف «داود» أمير الملتان مع «آننجبالا» صاحب لاهور و «ابن جيبال» على خلع طاعة محمود من جديد، واستنهض الأخير همة الأمراء الراجبوتيين، أشجع من عرفتهم الهند، وضمنهم راجاوات وكواليار وكالنجر وقنوج ودهلي وآجمير، وقد جمعهم على التكاتف مدى مايتهددهم من أخطار على أيدى السلطان الغزنوي. وزحفت جيوشهم مجتمعة للقاء جند المسلمين بأرض البنجاب، ومن خلفها الشعب الهندوكي يتفاني أفراده فى مدها بالزاد والعتاد في حماس بالغ دفع النساء الى تقديم حليهم في سبيل الدفاع عن الوطن، وعلى الرغم من كثرة من هلك من جند المسلمين الا أن محمودا واصل القتال برجاله في عنف وجلد بالغين مما دفع «آننجبالا» القائد الهندوكي الى الهرب فجعل بفراره صفوف جنوده تتلمس الفرار ... وهكذا قضى السلطان الغزنوى على جيوش الهند المتحدة واستولى على ماكان لديها من عتاد وكنوز، ثم انطلق من بعد ذلك قائداه عبدالله وأرسلان يطاردان فلول العدو والمدحور يومين كاملين .

واندفع محمود اثر هذا الانتصار الكبير إلى حصن «نكركُت» الذى يعرف أيضا بأسم «بهيمنكر» وكان يقوم على تل فى منطقة السهول الغنية بسفوح الهملايا، وبه كانت تكدس الأموال الكثيرة مما كان يتقرب به الهنادكة الى آلهتهم، ومالبث حراس هذا الحصن، وكانوا كهنة ينكرون الحرب وإراقة الدماء، أن استسلموا للمسلمين دون قتال ... وقد وصف العتبي مؤرخ السلطان محمود ماكانت عليه كنوز هذا الحصن من الكثرة البالغة فقال: «نقل منها (أى محمود) ما أقلته ظهور رجاله واستحمل سائرها أعيان رجاله»[٢٠].

والجدير بالذكر أن الهند كانت ومازالت الى قرون مضت تزخر بثروات وكنوز طائلة مما لاتكاد الأذن تصدقه .. ومن هنا فان محمودا غنم منها مغنما يتناسب مع حجم غزواته المتعاقبة ... وقد عادت هذه الغنائم على الدولة الغزنونية بالرفاهية ورغد العيش، فها هو يعود من احدى غزواته للهند ومعه أربعة آلاف بعير تكاد تنوء بما تحمله من أموال وعنائم، بل لقد كان جنده كثيرا ما يتركون خلفهم أوانى الفضة لثقلها مكتفين بما غنموا من ذهب كثير وجواهر عديدة ... ومن المشهور أن الأوانى التي كانت تزخر بها قصور الأغنياء كانت من المعادن النفيسة بل وهكذا كانت السكة المتداولة بين الناس.

(٢٠) العتبي : جزء ٢ ـ ص ٩٩.

وفي عام ٤٠١ هـ / ١٠١٠ كان السلطان محمود الغزنوى قد ضاق ذرعا بمؤامرات «داود» القرمطي صاحب الملتان، فعزم على سحقه بعد أن تيسر له القضاء على تمردات بلاد الغور، فما زال به حتى أوقعه في الأسر وحبسه في قلعة جوداك ، وقضي على حكومته في هذه المرة قضاء مبرما وخرّب عاصمته «المنصورة» .. كما طارد جند السلطان محمود الغزنوي «راجا بهيمبال» حفيد «جيبال» حتى كشمير وهنا يعود الفضل الى صاحبه في نشر الإسلام بهذا الاقليم الجبلي الواسع، واستطاع السلطان المسلم أيضا أن ينتزع حصن «ثنيسر» من أيدى الهنادكة على الرغم من تمسكهم في الدفاع عنه فحطم ماكان به من أصنام واستولى على مابه من أموال ونفائس كثيرة .

وهكذا سخر المسلمون اقليم البنجاب كله وماحوله، فصار الطريق الى سهول الهند نفسها مفتوحا أمامهم، وهاهي دائرة نفوذهم تتسع بفضل ماكان يفد إليهم من محاربي خارسان والتركستان وبلاد ماوراء النهر الذين استهوتهم أنتصارات محمود المتلاحقة وغنائمه الوفيرة، فاتجه صوب ««قنّوج» جوهرة ولايات الهند الشمالية وأعرقها.. وما أن عبرت جنود المسلمين «جمنة» حتى برز اليهم ««هارادانا» راجاباران التى تعرف اليوم بـ (بلندشهر) ومعه عشرة آلاف من رجاله طفقوا على حد قول ابن الأثير، ينادون بكلمة الإخلاص طلبا للخلاص.

ولكن ما لبثت حصون «مهادن جمنة» أن سقطت بدورها في أيدى المسلمين بعد أن من حماتها خمسون ألفا ابتلعهم النهر، ولم يطق الأمير الهندوكي «كلجند» وقع الهزيمة على نفسه، فقتل زوجه ثم انتحر حزنا على ماأصابه.[٢١]

ولم تشفع مقاومة أهل «ميترا» في شئ إذا سقطت مدينة الهنادكة المقدسة هذه وما بها من أموال في أيدي محمود .

(٢١) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ، ص ٧٢ .

ثم أشرف محمود على فتح فتوح عام ٤١٠ هـ/ ١٠١٩ م، وكانت أخبار انتصاراته قد سبقت إليها، فاستسلم له صاحبها «راجا بياله» دون أية مقاومة وفتح خزائنه واستولى على كنوزه ... وغداة رحيل محمود عن هذه المنطقة، أعلن الأمراء الرجبوتيين غضبهم على رئيسهم «راجابياله» الذى استسلم للسلطان المسلم، ونصّبوا مكانه «فيدياهار بن جندلة» صاحب كلنجر يعاونه صاحب كواليار .. فما برحا براجا بياله حتى أوقعـاه في الأسر، وانتهى أمره بالقتل .

وقد أثار الخبر ثائره السلطان الغزنوى، فارتد الى الهند ليعاقب هؤلاء الامـراء على فعلتهم، وقد همّ محمود حين رأى حشود الهنادكة الكثيفة أن يعود دون قتالها، ولكن الله عز وجل ألقى الرعب في قلوب الذين كفروا إعزازا لدينه ونصرا لعباده المخلصين، فإنفرط عقد هؤلاء الذين فى طبيعتهم الغدر، وانطلقوا فاَرين لايلوون على شئ.

وعاد محمود من جديد الى الهند, في عام ٤١٢ هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٢٢ م مخضعا كواليار لسلطانه، مصالحا «راجا جندله» على أموال طائلة مع طاعته.

ولئن كان غزو «قنوج» يعتبر من بين وقائع محمود الحربية الباهرة فإن فتح «الكجرات وسومنات» هو دون شك أعظم انتصاراته الهندية جميعا، فقد فاق ما لاقاه محمود من مصاعب ومتاعب في هذه الغزوة ماعاناه كل الذين سبقوه إلى دخول هذه البلاد، ومن بينهم الاسكندر المقدوني نفسه[٢٢].

لقد انتهت هذه الواقعة، وهي آخر غزوات محمود الهندية الكبرى إلى إنزال أكبـر ضربة بالأمراء الراجبوتيين، إذ ضاع من بعدها كل أمل لهم في استرداد هيبتهم السابقة بالهند، ومالبث خلفاء محمود آخر الأمر أن أضطروهم إلى الهجرة إلى المنطقة الصحراوية الوعرة التي تعرف اليوم باسمهم حيث نجح فريق منهم في الاحتفاظ باستقلاله هناك الى حين.

---

(٢٢) أحمد محمود الساداتى : المرجع السابق ـ ص ٧٢.

فتح سومنات :

اقتحم محمود وهو في طريقه إلى الكجرات عام ٤١٦ ـ ٤١٧ هـ/ ١٠٢٥ ـ ١٠٢٦ م صحراء جرداء قاحلة مترامية الأطراف واسعة المسالك هي صحراء الثار أكبر صحراوات الهند، فصار بقوة جلده وشدة بأسه وبأس رجاله مثار الدهشة والاعجاب .

وبهذه القوة وذلك الجلد استولى محمود على «آجمير ونهرواله» ووجد نفسه فى آخر المطاف أمام سومنات وإذا بالأمراء الراجبوتيين قد حشدوا جموعهم الغفيرة لحماية معبد الهنادكة الأكبر بها، ويترأسهم «بهيم ديو» حاكم «الكجرات» ومعه راجا نهرواله وأمراء بهاتى»، والتحم الفريقان في قتال عنيف انتهى بمذبحة دامية سقط فيها خمسون ألفا من الهنادكة مرّ الفاتحون المسلمون على اشلائهم إلى داخل الحصون

ولهذا المعبد (سومنات) قداسة عظمى لدى الهنادكه، حتى إنهم بادروا من فورهم الى تجديده.بعد قيام جمهورية الهند الجديدة، أى بعد مضي أكثر من تسعة قرون على تدمير محمود له.

ويصف المؤرخون معبد الهنود هذا بأنه كان بناء عجيبا ذا ست وخمسين سارية صفائحها من ذهب مرصع بالجواهر، وذا ألوف من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة تحيط بهيكله، وذا صنم ضخم في وسطه مرصّع بالجواهر والحجارة الكريمة الكثيرة، وقد كان الهنادكة يذهبون إليه في جموع زاخرة لاسيما عند خسوف القمر[٢٣]. وكان فى هذا المعبد من السدنة مايصل إلى الألفين، ومن النسوة المنشدات خمسمائة.

---

(٢٣) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ـ جزء ٩ ص ١٤٢، ١٤٣ حوادث سنة ٤١٦.

ومن البديهي أن محمودا لم يكن ليخاطر بعبور صحراء مهلكة مثل صحراء الثار هذه لمجرد تحطيم صنم أو الاستيلاء على ما بمعبد هندوكي من أموال فقط، بل للقضاء أيضا على راجا «نهرواله» وأمراء «بهاتي» اللذين عاونا راجا «كواليار» في الدفاع عن «سومنات» فقضى عليهما وهو فى طريق عودته الى عاصمة ملكه غزنة.

وقد تمثلت نهاية غزوات محمود في الهند في تلك الحملة البحرية التي قام بها لتأديب قبائل الزط المتوطنة عند الحاجز الملحي بالبنجاب وهي قبائل كان شناطها قد اشتد بعد انفراط عقد إمارة لاهور الهندية فشرعت تعيث في الأرض فسادا وطفقت تهاجم مؤخرة جيوش السلطان محمود ابان زحفها بأرض الهند .

ولو كانت غاية محمود من غزواته الهندية على وجه العموم هي مجرد جمع الأموال فحسب ـ كما يقول بذلك بعض المؤرخين ـ لكان من السهل أن يقبل ماعرضه عليه الهنادكة من افتداء صنم سومنات بالأموال الطائلة، ولكنه أجابهم بقولته المشهورة «أنه يؤثر أن ينعته الناس بأنه محطم الأصنام على أن يقولوا عنه أنه بائع الأوثان»[٢٤].

(٢٤) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ص ٧٤.

شخصية محمود :

هنا تجدر بنا الاشارة إلى حديث المؤرخ الهندوكى براساد Prasad الذى يقول : «إن محمودا ليعدّ في نظر المسلمين حتي اليوم غازيا ومجاهدا كبيرا أخذ على نفسه مهمة القضاء على الشرك في مهاد الوثنية، وهو في نفس الوقت عند الهنادكة طاغية مخرب حطم مقدساتهم، ودمّر معابدهم، وأذى شعورهم الديني في كثير ، ولكن المؤرخ المنصف حين لايسقط من حسابه تقاليد العصر الذى كان يعيش فيه وسماته واعتباراته ، لايسعه إلا أن يقرر أن محمودا كان زعيما بارزا من خيرة القادة والزعماء وحاكما حازما وجنديا عبقريا من الطراز الأول، اتصف بالعدالة ورعاية الفنون والعلوم ، فهو جدير ، اذن بأن يعد من بين أعاظم الملوك طرا»[٢٥].

ولعل هذا الاعتراف من الهنادكة أنفسهم ينهض دليلا قويا على دحض افتراءات المستشرق الانجليزى ادوارد جرانفيل براون حين أخذ يكيل الاتهامات ضد هذا السلطان الغازى في سبيل الله فيقول: «طالما وصف الكتاب محمودا الغزنوى بأنه كان نصيرا كبيرا للأدب والفنون ، ولكنه في رايي أقرب الى أن يوصف بأنه من كبار «الخطافين» لرجال الآداب والفنون[٢٦]

فكيف يصير محمود خطافا لـ «رجال الآداب والفنون» ؟ وهو الذى جعل من غزنة عاصمة دولته مركزا للثقافة الإسلامية بل قبلة العواصم الاسلامية الثقافية في المشرق الاسلامى في ذلك الحين[٢٧].

---

(٢٥) Prasad, Medieval India 71 - 77

(٢٦) ابراهيم أمين الشواربي الترجمة العربية لكتاب الأدب في ايران من الفردوس الى السعدى ـ تأليف ادوارد جرانفيل براون : ص ١١١.

(٢٧) بالاضافة الى غزنة عاصمة بلاط محمود كان هناك في المشرق الاسلامي قصر الصاحب بن عباد وزير البويهيين، وكان يقيم عادة في اصفهان أو الرى وقصر السامنيين في بخارى وقصر شمس المعالي «قابوس بن وشمجير الزيارى في (طبرستان) على مقربة من بحر قزوين، وقصر ملوك خوارزم المعروفين باسم مأمون في (خيوه).

ولما فتح الحكام المسلمون ومن بينهم محمود الأبواب على مصراعيها للعلماء والأدباء يكتبون وينظمون الحضارة الاسلامية، وجدنا بعض المستشرقين يشمرون أيضا عن سواعد حقدهم وكيدهم لمحمود لا لشيء إلا لأنه غزا في سبيل دين الله جلت قدرته، من خلال ظروف قاسية، ودعا الى تثبيت دعائم العلم والفكر في قرون متقدمة ، فنرى براون يقول ثانية «ومع ذلك لم يكن هو نفسه ليمتاز بما امتاز به هؤلاء الخصوم (يقصد أقرانه من حكام المشرق) من ذوق فني وخصال سليمة وشيم كريمة(٢٨)».

فأى ذوق فني هذا، وخصال سليمة وشيم كريمة تلك التي يسلبونها من محمود، وبلاطه في غزنة يزدهر بنجوم الثقافة الإسلامية مثل أبو الريحان البيروني صاحب «الآثار الباقية، تحقيق ماللهند من مقولة معقولة أو منقولة، التفهيم في صناعة التنجيم(٢٩) والذى يقول عنه براون نفسه «أنه كان رجلا غزير المعرفة، سمح الأخلاق، يمتاز بدقة النقد كما نفهمه في الوقت الحاضر(٣٠)، وأنه كان حريصا على تحرى الحقيقة ، ذا شخصية فريدة عالية مليئة بالشجاعة والإقدام، لايحجم عن كيل الضربات القاصمة إذا رأى الخير تجتاحه جائحة أو الحق تنزل به نازلة(٣١).

أما ابن سينا فهو رجل آخر من كبار الكتاب والمفكرين الذين عاشوا فى عصر محمود ... ولم يقتصر تأثيره في العصور الوسطى على الفكر الاسلامي فحسب بل تعداه الى الفكر الأوربى فأثر فيه أبلغ الأثر، وقد ذكر «بروكلمان» جملة من مؤلفاته عالجت شتى الموضوعات ، ولاشك أن أشهر كتبه كتابان هما: الشفاء والقانون، وأول هذين الكتابين يقع في ثمانية عشر جزءا(٣٢).

(٢٨) ابراهيم امين الشواربي: المرجع السابق ، ص ١١٨.

(٢٩) للبيروني كتب أخرى أغلبها مفقود، ولمعرفة المزيد عنها انظر قائمة بمؤلفاته في كتاب تاريخ الآداب العربية - تأليف بروكلمان جزء ١ ص ٤٧٥ -٤٧٦ .

(٣٠) الشواربي : المرجع السابق ، ص ١٢١ .

(٣١) ولد البيروني في «خوارزم» في عام ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م ، ومن المحتمل أنه مات في مدينة غزنة في ٤٤٠ هـ / ١٠٤٨ م.

(٣٢) بروكلمان : المرجع السابق : جزء ١ ص ٤٥٢ ـ ٤٥٨ هـ كما نشر الأب جورج قنواتي بتكليف من جامعة الدول العربية بمناسبة العيد الألفي لابن سينا ثبتا بمؤلفاته بعنوان (مؤلفات ابن سينا) طبع القاهرة ١٩٥٠ م... كما نشرت جامعة الدول العربية أيضا (الكتاب الذهبي للمهرجان الألفي لذكرى ابن سينا في بغداد) سنة ١٩٥٢. وقد نشر الأستاذ الدكتور ابراهيم مدكور أجزاء من هذين الكتابين.

وهناك أيضا العتبي الوزير ومؤلف تاريخ اليميني والبيهقي صاحب تاريخ آل سبكتكين، والفارابي الموسيقي المعروف[٣٣]. وغيرهم من شعراء الفارسية يأتي على رأسهم الفردوسي صاحب الشاهنامة وأبعد شعراء الفرس صيتا وأخلدهم ذكرا والعنصرى والفرخى والعسجدى.

كان طبيعيا أن يكون محمود أول من يتلقب بلقب (سلطان) كما أن الخليفة العباسي على عهده (القادر بالله) خلع عليه من الألقاب ماهو كثير، فنجده معروفا بـ (الأمير السيد، الملك المؤيد، يمين الدولة، أمين المملكة ، أبوالقاسم محمود بن ناصر الدين أبي منصور سبكتكين ملك الشرق بجانبيه[٣٤] كما أنه كان سني المذهب، يعترف بالسلطة الروحية العليا لخليفة بغداد[٣٥].

الحق إذن أن محمودا كان من أعظم سلاطين المسلمين ، وسّع ملكه الأول إلى سلطنة مترامية الأطراف امتدت من بهار في شرق الهند الى فارس، وكان مما ساعد على انطلاق عبقريته الحربية اطمئنانه إلى تأمين مؤخرته حين أقبل على الهند غازيا، فضلا عن اشاعة الخلاف بين أمراء الهنادكة أنفسهم، ولا لوم عليه في ذلك، فالحرب خدعة في جزء منها .

على أنه قد تيسر لمحمود ، إلى جانب ذلك كله، عون رجال الفكر اللذين تمكنت عقيدة الجهاد من أنفسهم فتفانوا في خدمته .. ومن أمثلة هؤلاء أشهر وزرائه وهو «أبوالقاسم أحمد بن الحسن الميمندى» وكانوا يلقبونه بـ (شمس الكفاة) وهو الوزير الذى استشفع أكثر من مرة للبيروني والفردوسي، وقد مدحه كثير من الشعراء المعاصرين بكثير من القصائد الجميلة [٣٦]

---

(٣٣) محمد قاسم هندوشاه: تاريخ نشرته: جلد أول، ص ٣٩ طبع لكنو .

(٣٤) العتبي : تاريخ العتبي : جزء ١ ، ص ٣١.

(٣٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، أحداث ٤٢٠ هـ ، اذ يذكر أن محمودا في نهاية حياته كان يأمر بصلب الاسماعيلية ونفي المعتزلة واحراق كتب الفلاسفة.

(٣٦) الشواربي : المرجع السابق : ص ١٢٠.

وقد ظلت اللغة العربية طوال عصر محمود الغزنوى بل ولمائتين وخمسين عاما تلت أو مايزيد قليلا هي لغـة العلـم ولغـة السياسـة والمراسلـة والأدب الـرفيع في المشرق الإسلامي ... ولعل لمحمود الفضل في ذلك، فقد رأى أن لغة القرآن الكريم هي التي ينبغي أن تسود من ناحية، ثم أن علاقته بالبيت العباسي فى بغداد كانت تقوم على المودة والاحترام المتبادلين .

إذن فالتراث العربي في المشرق الاسلامي يدين لمحمود بالفضل من بعد الله والا لقضت عليه حركة الشعوبية التي كادت أن تؤتي ثمارها في أخريات العصر الساماني بل في عصر محمود نفسه.

وقد شغف محمود بالهند شغفا زائدا وأعجبه طقس «الكجرات» خاصـة، فمال إلى الاقامة الدائمة هناك ، على أن ينيب ابنه عنه بغزنه، لكن رجاله عاودهم الحنين إلى منازل قبائلهم ومراعى بلادهم الخضراء وبساتينها كما ضايقهم حر الهند وعجزوا عن احتماله[٣٧].

وبينما يشيد مؤرخ أجنبي مثل ستانلي «لين بول» بمحمود فيقول: «إن ذلك السلطان الذى أقام تلك المنشآت الفخمة بغزنه وأقام دور العلم ورعى العلماء حتى كان يجود عليهم بما لايقل عما يعادل مائتى ألف من الجنيهات كل عام، فضلا عما كان يجريه على طلبة العلم من الأرزاق، لايمكن أن يكون في زمرة الطغاة البرابرة[٣٨] تركنا نحن محمودا للافتراء من أغلب المؤرخين ومحاولة للإنصاف من أقلهم دون أن نفي نحن المسلمين بحقه علينا.

ان مايقوله لين بول صحيح، فمحمود على الرغم من جسارته وشجاعته، وكأننا به كما تقول الخنساء في أخيها صخر .

حمّال ألوية ، هبّاط أودية .. شهاد أندية ، للجيش جرار.

(٣٧) الساداتي : المرجع السابق : ص ٧٥.

38 - Lane- Poole, St., Mediev India Under Mohamedan Rule London 1917 .

كان طيب القلب يخشى الله، وكيف لا يكون كذلك وهو المجاهد الغازي في سبيله.. بل انه سرعان ماكان يندم على تصرف صدر عنه ثم وجد أنه في غير محله ... وهاتان قصتان واحدة في مجال السياسة والأخرى في مجال رعاية العلماء والأدباء تشهدان بذلك .

الأولى: فكر محمود ذات مرة في أن يضم إلى حوزته إقليما كان يتبع الخليفة العباسي القادر بالله مباشرة فكتب اليه ـ وهو صاحب الكلمة الأولى في العالم الاسلامي عندئذ ـ يقول: بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، اصدر أمرا بضم هذا الاقليم اليّ، وإلا سحقته بأقدام الفيلة، فرد عليه الخليفة قائلا: «بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين، أما بعد، ألم. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

احتار محمود ورجال بلاطه في فك لغز هذه الرسالة المقتضبة وفي النهاية وقف من يدعى عبدالله الجهانباني قائلا: سيدى كنت قد هددت الخليفة بالفيلة، وها هو يرد عليك بسورة الفيل، ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم فى تضليل، فأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول» وهنا بكى محمود خشية من الله، وأرسل الى الخليفة يعتذر له. ووصل الجهانباني وخلع عليه الخلع المختلفة(٣٩).

والثانية : أن محمودا تأثر كثيرا ببيت من الشعر كان الشاعر الفردوسي قد أورده في شاهنايته، عندما اعترض طريقة ثائر من الثوار تحصن في قلعة منيعة وهو في طريقه من بلاد الهند إلى عاصمته غزنة، ولما ذكره به وزيره الميمندى، أحس محمود أنه قد ظلم هذا الشاعر، وندم عما بدر منه نحوه، وقال للوزير: «لقد بقي هذا الرجل النبيل (يقصد الفردوسي) محروما من نوالي، فذكرني بأمره بمجرد عودتي إلى غزنة حتى أرسل إليه شيئا «فلما وصل الوزير إلى مدينة غزنة، ذكّر محمودا بشأنه فقال السلطان له :

---

(٣٩) أنظر كتاب دراسات ومختارات فارسية لكاتب المقال وآخرين ، الجزء الخاص بالنصوص .

مـــر لأبي القاسم الفردوسي بستين ألف دينار تعطى له من أصباغ «النيلة» ولتحملها إلـــيه في طوس الإبل السلطانية، ومر رجالي أن يسألوه المعذرة (٤٠).

هذا هو محمود السلطان القوى الطيب الجسور المتسامـح المجاهـد في سبيل اللـه والخاشي من الله .

لاعجب إذن في أن يعجب شعراء الفرنجة بشخصية محمود التي جمعت بين الإيمان والجرأة في الحق والصمود أمام إغراء المال، فنجد الشاعر «لوول» ينظم فيه هذه القصيدة تحت عنوان «ثم تحطم الصنم» وترجمتها :

للأحداث القديمة معاني جديدة
ولن يقدَّر البقاء لشيء من الماضي
سوى ما أحـــدث صـــدى
في قلـوب البشـــر جميعــا
حدث مرة لمحمود محطم الصنم وناشر الاسلام
أن وقع وهو في سومناة في محنة

كما تقـول الروايــــات
ففي بهو المعبـد الكبيــــر
انتصب الصنم كالوحش الكريه
ضم من الفرانيت على عرش من الغرانيت
وهو الصنم الذي يهيمن على معبد !!
وصمت محمود (مترددا) بضع لحظات .
وهو يتأمل وجه الصنم الصامت
الذى كانت عيناه الجاحظتـــان
تملآن المكـــان رهبـــة
وركع البراهمة أمامـــه

(٤٠) يمكن مراجعة تفصيل قصة الفردوسى مع السلطان محمود الغزنوى في الترجمة لكتاب تاريخ الأدب في ايران من الفردوسي إلى السعدي، تأليف براون وترجمة الشواربي ص ١٥٦ وما بعدها.

بعد أن شجعهم صمته
وتعهدوا بدفع فدية عظيمة
من جواهر وقطع ذهبية لا تحصى
ومع أن السلطان كان يعتبر الذهب عرضا رخيصا
فقد كان يعرف قيمته المادية.
وذلك لأن جذور السلطة
تتغذى بلبانه .
قال محمود : لو كان الأمر
مجرد أمر حجر لرضيت .
لكن الأمر يعدو ذلك
الى التهاون في الحق
المال والسلطان عرض زائل .
تحت رحمة الزمن
أما حماة الدين
فإنهم ثابتون كالطود
ضياع المنصب
والحياة والتاج ـ كله يهون
ولكن مالا يمكن تعويضه.
هو أن يخسر المرء نفسه
وهكذا أشهر (محمود) سلاحه
وضرب الصنم على الأرض
وصار حطاما .
وعلى أرض المعبد كان الكهنة
قد ضاعفوا الفدية خمسين مرة(٤١)

---

(٤١) عن مقال للدكتور محمود زايد نشر بصفحة أدب وشعر، جريدة الشرق الأوسط الاثنين ٧ محرم ١٤٠٠ هـ/ ١٩٧٩/١١/٢٦ م ـ السنة الأولى ـ العدد ٧.

ولم تحرك سيرة هذا السلطان العظيم همة الشاعر «لوول» فقط بل تعدته إلى شعراء آخرين من الفرنجة، فهـا هو الشاعـر الانجليزى الرومـانتيكي «لي هنـت» (١٧٨٤ ـ ١٨٩٥ م) يقول فى قصيدة له بعنوان «محمود» نظمها في عام ١٨٢٣ م ماترجمته[٤٢]:

ـ ليكـن المجـرم من كان . اننـي أعـرف واجبي
ـ لـكنـي أخشـى عاطفـة الأبـوة إذا حدث الأسوأ
ـ ولهـذا أطفـأت النـور، لم أكـد اتبيـن
ـ وجهـه ، لـم أكـد أعـرف أنـه غريـب عني
ـ حتـى خـررت ساجـدا ، وشـكـرت العلي القدير
ـ فقد امتثلت لأوامره في بحر من الألم والخـوف[٤٣].

ولعلنا بعد ذلك نجد أن محمود الغزنوى جدير أن يحرك فكر مؤرخينا المسلمين، فيتجهوا الى درسه وابرازه ، وقمين أن يستهلم خيال الشعراء المسلمين لتخليد أعماله .

(٤٢) نقلت هذه الترجمة عن الدكتور محمود زايد في مقاله المنشور بجريدة الشرق الأوسط العدد ٢٦ الصادر في ١٩٨٠/٤/٧ م.

(٤٣) تدور فكرة هذه القصيدة حول قصة عدل السلطان محمود فقد حدث مرة أن قبض رجاله على أحد المجرمين واستحق الموت، فتردد طيلة ثلاثة أيام قضاها صائما في السؤال عن هوية المجرم خشية أن يكون أحد أبنائه، فتتغلب عاطفة الأبوة على ضرورة العدل. وأخيراً أمر باحضاره وتنفيذ الحكم فيه، ولكن في الظلام وبعد أن جرى تنفيذ الحكم وأعيدت الأنوار ورأى المجرم خر محمود ساجدا لله لأنه لم يكن ابنه .

خلفاء محمود الأقوياء في غزنة وشبه القارة الهندية :

توفى السلطان محمود الغزنوى عام ٤٢١ هـ/١٠٣١ م بعد أن أوصى بملكه لابنه محمد جلال الدولة دون ولده الأكبر مسعود(٤٤).

كان على مسعود أن يرفض تنفيذ الوصية، فيكتب إلى أخيه السلطان الجديد أن يقره على الجزء الذى كان قد تولى فتحه، وهو طبرستان وأصفهان وماحوله، بل وأن يقدمه على نفسه في الخطبة، وطبيعي أن يرفض محمد مطالب مسعود بل نراه يعزم على محاربته على الرغم من نصيحة المخلصين حوله(٤٥).

والواضح أن محمد جلال الدولة كان ضعيفا، اذ سرعان ماغدرت به جند غزنـة، وزجت به في السجن .. وكتب قوادهم إلى مسعود يستد عونه، وكانوا يفضلونه على أخيه لشجاعته وطموحه .

وقد كان من الممكن أن يواصل مسعود خط أبيه محمود في توسيع رقعة الدولة ونشر الاسلام في مناطق جديدة لولا أنه كان يعرض عن الاستماع لنصح وزيريه المحنكين أبي القاسم بن حسن الميمندى وأحمد بن عبدالرحمن، وذلك أمر عجّل بتقويض الدولة الغزنوية المترامية الأطراف.

كان السلطان مسعود قد أرسل قائده أحمد بن ينالتكين حاكما على بلاد الهند، وقد مد هذا القائدَ نفوذه إلى بنارس، ولكن ماغنمه فيها من كنوز وأموال كثيرة جعل الحقد

(٤٤) في عام ٤٠٦ هـ/١٠١٦م كان السلطان محمود قد عهد لمسعود بولاية العهد ونصبه حاكما على هراة، وكلفه بمحاربة الغوريين، وعلى الرغم من أن مسعودا ابلى بلاء كبيرا إلا أن أباه استجاب لوشاية الواشـين وعزله ... ثم عفا عنه، وأعاده الى هراة دون ولاية العهد .

(٤٥) البيهقي : تاريخ البيهقي، ص ٨١ ومابعدها.

والحسد يحرفان طريقها إلى قلب شريكه في إدارة الاقاليم الهندية عبدالله قاضي شيراز فطفق يبعث برسائله تترى إلى البلاط الغزنوى طافحة بالتهم لقائد مسعود بالهند، وزاد من تأثر مسعود لهذه الوشايات أن اعداء إبن ينالتكين قد أشعلوها عداوة وصوروها على أنها رغبة جامحة فى الاستئثار بالسلطة واستقلال بها .

والحق أن مسعودا تريث هذه المرة قبل أن ينتهى الى رأى قاطع في شأن نائبه على الهند. ولكن وصلته أخبار مؤداها أن المعارك قد احتدمت بين ينالتكين وقاضي شيراز الذى أفلح في تأليب أهل البنجاب على منافسه، وهنا خشي السلطان من استفحال الأمور، فسيرّ قائدا من الهنادكة الذين أسلموا يدعى «تلك»(٤٦) كان مشهورا بالشجاعة وقوة الشكيمة(٤٧). بحيث أنه ما أن وصل الى لاهور حتى انفض بنو جلدته من حول ينالتكين وتركوه يحارب ومعه بقية ثبتت على مبدأها إلى أن قتلوا بسهام فريق من قبائل الزط وسيوفهم طمعا في المكافأة المالية التى رصدها «تلك» لمن يأتيه برأس غريمه(٤٨).

والواقع أن مسعودا قد خسر باستجابته للوشاة قائدافـذاهو: أحمد بن ينالتكين في معاركه ضد السلاجقة الذين شرعوا يهددون حدود الدولة الغزنوية من ناحية الغرب .

وفي أوائل عام ٤٢٩ هـ/١٠٣٧م أراد السلطان مسعود الغزنوى أن يحقق حلما كان قد راوده بالاستيلاء على حصن «هانسي» الهندوكي فلم يبلغه الا في أواخر ربيع الأول من العام نفسه ، واستطاع أن يسيطر عليه بعد قتال عنيف، ثم يتجه صوب «سنبات» الواقعة في شمال دهلي، وأصاب فيها مغانم كثيرة .

وقد انتهز السلاجقة فرصة سفر مسعود الى الهند، وهاجموا بقيادة زعيمهم طغرل الدولة الغزنوية، واستولوا على نيسابور ثم بسطوا نفوذهم على خراسان ضاربين عرض

---

(٤٦) كان تلك هذا صبيا حسن اللقاء ذا خط حسن في اللغتين الهندية والفارسية وقضي فترة طويلة في كشمير يتعلم ويدرس ثم أتصل بقاضي شيراز «أبوالحسن» حيث تألق نجمه (أنظر البيهقي ص ٤٠٦ ومابعدها).

(٤٧) البيهقي : المرجع السابق ، ص ٤٣٠.

(٤٨) البيهقي : المرجع السابق ص ٤٦٠، ٤٦١ .

الحائط بما كان بينهم وبين مسعود من مواثيق كانوا قد التزموا بها بعد هزيمته لهم عام ٤٢٤ هـ/١٠٣٢ م.

وقد مني مسعود بهزيمة حاسمة على يد السلاجقة في شهر رجب من عام ٤٣٢ هـ / ١٠٤٠ م في موقعة «دندا نقان» على مقربة من مرو، ولاشك في أن هذه الموقعة هي التي اعلنت تقويض ملك الغزنويين في خارج الهند وداخلها .

ذلك أن مسعودا أصر على الاتجاه الى الهند في مسيرة من أهله واعوانه هادفا جمع جيش قوى يستعد به لملاقاة السلاجقة، ولكن لم يكد يعبر السند بالغا قلعة «هاريكله» بين أتوك ورو البندى حتى وثب عليه غلمانه من الهنود والأتراك طمعا في خزائنه. وحبسوه في القلعة، ونادوا بأخيه محمد الكفيف سلطانا، وظل على هذا الحال حتى قتله ابن أخيه الأمير أحمد في عام ٤٣٣ هـ/١٠٤١ م.(٤٩).

وبموت مسعود طويت صفحة حاكم مسلم اكترث كثيرا بالعلم والعلماء والتفت الى الانشاء والتعمير حتى غصت بلاده بالكثير من المدارس والمساجد والنزل التى أقامها .

لقد استطاع هذا السلطان أن يحتفظ مدة غير قصيرة برقعة ملكه التي أمتدت في وقت من الأوقات من العراق حتى حدود الهند الشرقية ولكن القدر ، على حد زعم مؤرخه البيهقي(٥٠)، دفعه إلى الوقوع فى الخطأ الذى قرر مصير دولته عندما قرر الرحيل الى الهند بعد واقعة «دندانقان» بدلا من التحصن في غزنة ومحاولة دفع السلاجقة عن حدوده .

ذلك أن توالي الأحداث قد برهن أن مخاوفه لم تكن على أساس فقد كان هم السلاجقة في التوسع يتجه في الواقع نحو فارس دون اكتراث جدى نحو غزنة والشرق عموما، فقد كانت مراعى خراسان أحب إليهم وأفضل من تلال الأفغان وما خلفها... هذا غير بلاد فارس التي كانوا قد استولوا عليها ثم أخذوا يتوسعون في فتوحاتهم حتى بلغوا شواطئ البحر الأبيض المتوسط .

(٤٩) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق ، ص ٨٠.

(٤٩) أحمد محمود الساداتي المرجع السابق ، ص ٨٠ .

(٥٠) البيهقي : المقدمة ، ص ٣٧، ٣٨.

انقراض الدولة الغزنوية :

لم يستمر السلطان محمد الكفيف على عرش غزنة كثيرا، اذ سرعان ما طالبه مودود بن السلطان مسعود بالتنازل، بل دخل معه في معركة حربية عند «الدينسوَر» على الطريق بين كابل وبشاور، وطبيعي أن تكون الهزيمة للسلطان الكفيف، ولم يكتف مودود بالهزيمة فأخذ ينتقم من كل من خانوا أباه مسعود.

وبينا كان لانتصار مودود نتائج ايجابية من حيث دفع الاهالى في الاقاليم الغزنوية إلى الثورة على السلاجقة الذين كانوا قد احتلوا بعضها بل واخراجهم منها(٥١) نجد أن من نتائج هذا الانتصار السلبية ذلك العصيان الذى تزعمه مجدود حاكم البنجاب، اذ أعلن الاستقلال بهذه المنطقة، وتوجه بقواته قاصدا محاربة أخيه السلطان مودود، غير أن الأجل وافاه عند لاهور .

وقد شجع هذا العصيان من جانب مجدود بعض أمراء الهنادكة فشرعوا في الثورة ، ووصلوا لاهور ، الا أن جنود الغزنويين تمكنوا من صدهم، وإعادة هيبة ماتقوض من نفوذ المسلمين في شمال شبه القارة الهندية كله .

وبعد هذا الانتصار شرع مودود يعد العدة لمواجهة السلاجقة الذين حسبوا حسابه . وكيف لا: وهو الذى استرد منهم ماأخذوه من أقاليم غزنوية ، ولكن القدر أجاب سريعا على مابداخل الطرفين من رغبات فقد مات مودود عام ٤٤١ هـ/١٠٤٩ م.(٥٢).

(٥١) كان السلاجقة في أول الأمر عبارة عن جنود مرتزقة عرفوا بالجرأة والكبرياء، والاستهانة بغيرهم مما اضطر محمود إلى سلوك سبيل العنف معهم. وقد سلك معهم مسعود سياسة غير رشيدة عندما أراد الاستعانة بهم لتقوية جيشه، وهنا تفاقم خطرهم وانتهي الأمر بالسيطرة على ملك الغزنويين. أنظر البيهقي ـ المقدمة. ص ٢٤ ، ٢٥.

(٥٢) الشواربي : المرجع السابق ، ص ٢١٣ .

وبموت مودود، يظهر على المسرح الغزنوى جماعة من الأمراء الضعاف، يتناحرون ويتقاسمون فيما بينهم الكيان الغزنوى، وهم بذلك يمهدون الطريق أمام السلاجقة لأخذ مكانهم في التاريخ من حيث لايدرون .

فإذا كان ابراهيم بن مسعود قد أفلح لدى ارتقائه العرش من تنظيم شئون الدولة، وألزم قبائل الترك والأفغان الطاعة وأقر الأمور فى الهند، وهادن السلاجقة، فان خليفته علاء الدين مسعود قد فتح الباب على مصراعيه للسلاجقة، بمصاهرته للسلطان سنجر السلجوقي الذى ظهر بجنده في غزنة على إثر وفاة علاء الدين وأنزل عن عرشها الأمير أرسلان تلبية لدعوة أخته أرملة السلطان الغزنوى الراحل ... وكانت على خلاف مع هذا الأمير الجديد الذى اضطر بعد ذلك الى النزوح الى الهند حيث مات هناك عام ٥١١ - ١١١٧ م[٥٣].

معنى ذلك أن الوصاية من السلاجقة أصبحت قائمة في غزنة عاصمة الغزنويين، ولكن الأمير بهرام المرتقي عرش الغزويين فى ظل السلاجقة يحاول الإفادة من تحول السلاجقة إلى فارس، ويجتهد فى تغيير الأوضاع بقدر مايستطيع إلى ذلك سبيلا، فيخمد الفتن في الهند، ويدفع أمراء الهنداكة عن لاهور فتهدأ الأمور في البنجاب والملتان .

إذن فبهرام بهذا الاجتهاد يريد استعادة ماضاع من نفوذ الغزنويين حتى ولو من خلف ظهر دولة السلاجقة الفتية، ولكن تأتى الرياح بما لاتشتهي السفن ... فقد اصطدمت جهوده مع مطالب ملوك الغور[٥٤] الذين كانوا ينزلون فيما بين غزنة وهراة ، وساعدوا السلطان محمود الغزنوى خير مساعدة في حروبه الخالدة من أجل نشر الإسلام في شبه القارة الهندية ... ولكنهم مع ذلك لم يترددوا فى الخروج على خلفائه في فترات الضعف التي حاقت بالغزنويين.

(٥٣) أحمد محمود الساداتي : المرجع السابق، ص ٨٣.

(٥٤) هم ملوك جبال الغور في الشمال الشرقي من ايران، وقد ورثوا حكم الغزنويين ثم دولة ملوك خوارزم أو حكام خيوه وهي الدولة التي اصبحت أكبر خصم للسلاجقة عند تولي أتز في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م، وكذلك سلاجقة كرمان الذين كانوا يحكمون بغير منازع في الولايات الجنوبية من ايران .

ويبلغ التوتر اقصاه بين الغزنويين والغوريين حين يأمر بهرام بقتل زعيم غورى يدعى الأمير «سورى» فلم يطق الغوريون ماحدث ويفلح زعيمهم «علاء الدين حسين» في دخول غزنة ، غير أن بهرام سرعان مايسترد العاصمة .

مات بهرام عام ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م، ويخلفه ابنه خسرو الذى يفر إلى الهند في أثر اقتحام قبائل التركمان للعاصمة غزنة وبعد هزيمتهم للسلطان السلجوقي سنجر[٥٥]. وينتهز الغوريون الفرصة ويؤكدون وجودهم بالقضاء على قبائل الغزو التركمانية، ويبسط زعيمهم غياث الدين بن سام سلطانه على غزنة ومنطقة كابل ، ويعهد بالأمر في المنطقتين إلى أخيه معز الدين بن سام الذى تذكره كتب التاريخ باسم «محمد الغورى».

ورغبة من الغوريين في القضاء نهائيا على الدولة الغزنوية ، فإنهم يتعقبون آخر من يمكن المطالبة بحقهما في زعامة هذه الدولة وهما خسروا وابنه بهرام شاه الثاني ، فما زالوا يطاردونهما بالهند حتى قضوا عليهما، وبذلك انتهت سيرة دولة عمرت قرنين من الزمان وكان لها شرف تأكيد الوجود الاسلامي في شبه القارة الهندية متابعة في ذلك جهود القادة الأوائل من العرب المسلمين في زمان الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين ومن بعدهم خلفاء بنى أمية الذين يعود إليهم فضل اتساع رقعة العالم الاسلامي.

---

(٥٥) هو سادس سلاطين السلاجقة العظام، امتد حكمه من عام ٤٩٠ ـ ٥٥٢ هـ / ١٠٩٦ ـ ١١٥٧ م .. تولي في بداية حياته امارة خراسان وما وراء النهر وقد شهدت فترة امارته فتوحات كبيرة في ماوراء النهر ثم تمكن من فتح غزنة عاصمة الغزنويين عام ١١١٧/٥١١ م، وقد تعرض فى أخريات حياته الى هزائم متكررة على يد قبائل الغز، وهم من الأتراك المقيمين فيما وراء النهر إلى حد أنهم أسروه في واحدة من المعارك العسكرية.. وكان سنجر سلطانا شجاعا وكريما ومحبا للرعية وراعيا للعلم والأدب. (دورة تاريخ ايران از آغازتا انقراض قاجاريه، تأليف حسن بيرنيا مشير الدولة وعباس اقبال أشتياني جزء دوم ص ٣٥٠ ومابعدها).